

ملف العدد

المعرفة والتحرير في تاريخ وهران

الرباط والفدا في وهران والقبائل الكبرى.

« أعدنا هنا نشر دراسة تاريخية قيمة للشيخ المرحوم المهدي البوعبدلي، صدرت في عدد 13 من سنة 1973 عن مجلة الأصالة التي كانت تصدرها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف»

الشيخ المرحوم المهدي البوعبدلي
مؤرخ وعضو المجلس الإسلامي الأعلى

إن موضوع حديثي في هذه الدراسة : الرباط والفدا في تاريخ البلاد الإسلامية بصفة إجمالية، وأركز بحثي عن الرباط الذي اشتهر بمدينة وهران حيث لعب أدواراً رائعة، وحظي بدراسات هامة لكثير من كبار المؤرخين بينوا فيها بتفصيل نظامه وموقعه وحياة المرابطين فيه وكيف كان فضله من أسباب انتصار المسلمين على الإسبان وطردهم من وهران، بعد احتلال دام ما يقرب من ثلاثة قرون.

كما أتحدث عن الفداء الذي اشتهر ببلاد القبائل الكبرى بعد الاحتلال الفرنسي، إذ امتاز بنظام خاص لم نجد له شبيهاً في بقية البلاد الإسلامية عبر التاريخ.

الرباط والفدا في بلاد الإسلام عامة وفي بلاد المغرب العربي خاصة :

الرباط هو الملازمة في سبيل الله، أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الربط : مصدر رابط يربط، بمعنى أقام ولازم المكان، ويطلق في اصطلاح علماء الدين خصوصاً الفقهاء، المتصوفين على الأمكنة التي تنشأ في المواقع الحربية، لحماية البلاد وحراستها من هجومات الأعداء وكذلك تطلق على البقاع التي تؤسس لاجتماع المنقطعين لله والمتعبدين للذاكرين، وكذلك على المعتكفين لتعلم الدين وتعليمه.

وأصل الرباط في القرآن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ سورة: الأنفال، الآية : 60، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة: آل عمران، الآية : 200.

قال الشيخ عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر في الجواهر الحسان في تفسير هذه الآية : روى مسلم في صحيحه عن سلمان قال سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله، الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتن » وأخرج الترميذى عن فضالة عن عبيد علي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال : « كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا فإنه ينمو عمله يوم إلى يوم القيامة و يأمن من فتنة القبر » قال أبو عيسى هذا حديث صحيح، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال : « من مات مرابطا في سبيل الله أجرى الله عليه اجر عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتن ويبعثه الله آمنا من الفزع » وروى مسلم والبخاري عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » ثم قال روى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لرباط يوم في سبيل الله، وراء عروة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أعظم أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ، ورباط يوم في رمضان أفضل عند الله وأعظم أجرا من عبادة ألفى سنة، صيامها وقيامها » ذكره القرطبي مسندا، ثم تعرض الثعالبي لمعنى الرباط اللغوي فقال : « إن زين الدين العراقي ذكر في اختصاره لغريب القرآن تأليف أبي حيان معنى رباطو داوموا وأثبتوا » وهذه الأحاديث النبوية التي ساقها الثعالبي في تفسير هذه الآية الكريمة دالة على اهتمام تعاليم الإسلام بالرباط والترغيب في دوام الإقامة به، إذ الدوام والثبوت اللذين فسربهما زين الدين العراقي، الآية الكريمة لا يتأتیان غالبا إلا مع السكنى، ثم إن المفسرين والمحدثين قسموا هذه الرباطات والإقامة فيها إلى درجات وجعلوا تفاوت أجور المرابطين بها حسب موقعها وبعدها أو قربها من بلاد الإسلام، خصوصا الموجودة منها في الشواطئ القريبة من بلاد الكفار.

قال في كتاب الحبس من المدونة : ومن حبس في سبيل الله فرسا أو متاعا فذلك في الغزو، ومواحيـز الرباط كالإسكندرية ونحوها، وأمر مالك في مال جعل في السبيل، أن يفرق في السواحل من الشام ومصر، ولم يرض جدة من ذلك، قيل له : قد نزل بها العدو، قال كان ذلك أمرا خفيفا، قال ابن الحاجب في التوضيح وسأله قوم أيام كان من دهلك ما كان (ودهلك هذا في كلام المدونة إسم مالك من ملوك السودان وبه سمي البلد، وهى جزيرة ساحل البحر من جهة اليمن) - قاله عياض، وقال هو بفتح الدال -

وقد تجهزوا يريدون الغزو إلى عسقلان : الإسكندرية، وبعض السواحل، وسألوه أن ينصرفوا إلى جدة فنهاهم عن ذلك، وقال لهم ألقوا بالسواحل.

وحكم مالك على رباط جدة، قد ألغي فيما بعد، إذ ذكر كثير من الفقهاء المتأخرين، أن جدة نزل العدو بسواحلها في أوائل القرن العاشر الهجري، فهي ثغر، ذكر هذا الفقيهان الحطاب وسالم السنهوري وعن بعضهم يكون بها قتلى وشهداء لا شهيد على وجه الأرض أفضل منهم ثم قال الحطاب وسالم السنهوري وهي في هذه الأيام رباط، وأن العدو توصل إلى بلاد الهند في أوائل العاشر، واستولوا على بلاد كثيرة منه، ووصلوا إلى جدة سنة تسع عشر وتسعمائة 919 هـ، فشق ذلك على المسلمين ونزل الناس إلى جدة، ثم خذل الله العدو بعد أن بنوا حصنا لوخم أرسله الله عليهم، ثم جاؤوا سنة ثلاث وعشرين ونزلوا بساحل جدة في ثمانية وعشرين قطعة، وحصل للناس وجل عظيم وأيقنوا بالأخذ ونزلوا إلى جدة من المدينة وغيرها وحصنوها بالمدافع، فألقى الله الرعب في قلوب العدو، وحبسهم عن النزول للبر حابس ثم تشتتوا، وغنم منهم أمير جدة غرابا، واسر من فيه، ثم في سنة ست وعشرين أتوا إلى قرب جدة ورجعوا مخذولين، وفي سنة تسع وأربعين وتسعمائة 949 هـ جاء منهم بعض الأغربة لساحل جدة واخذوا بعض الجلاب الواصلة لها من الشام، واليمن، وفيها جماعة من الحجيج ففك الله أسرهم ونصرهم وألهمهم رشدهم وخذل الكفرة، ورد كيدهم في نحورهم.

فلا شك حينئذ أن ما حكم به مالك على رباط جدة قد زال، وإن رباط جدة من أعظم الرباطات .

ولهذا قال ابن جريج، أن فضل مرابطي جدة على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلاد.

والحاصل إن الثغور في الاصطلاح، جعلت علما على الأمكنة المخوف عليها من العدو، وهذه الخطورة تتغير زيادة على ما ذكرناه من تفاوت اجر المرابطين حسب مواقعها، تتغير أيضا بحسب الأمكنة والأزمنة وقوة العدو وضعفه واهتمام الملوك بالدفاع عن حمى الوطن أو تقاعسهم واتفاقهم مع العدو سرا أو علانية كما وقع ذلك في كثير من الأوقات ببلاد المغرب العربي.

وقد اشتهرت الربط لحراسة الثغور، ورباطات المتعبدین في بلاد الإسلام من أوائل الفتح، وقويت لما اشتدت غارات المسيحيين على شواطئ المغرب العربي والشمال الإفريقي، إثر الحروب الصليبية، واسترجاع المسيحيين لجزيرة صقلية، واثار غارات الإسبان والبرتغال على قواعد البلاد الإسلامية بشواطئ إفريقيا الشمالية، فزيادة على شن غارات الاعتداء على السواحل المذكورة كانت بعض العصابات

المسيحية تكونت لحسابها الخاص ولها أساطيل تقصد شواطئ القرى المنقطعة، فتختطف السكان لتنصيرهم أو بيعهم في أسواق الرقيق، أو لمبادلتهم مع الأسرى المسيحيين . ذكر الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرقي في تأليفه المسمى « بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان من الأعراب كبني عامر » الذي ألفه سنة 1178 هـ عن نوع من المتعاونين مع الإسبان مدة احتلالهم لوهران كانوا يعرفون بالمغطسين أو المغاطيس يستعين بهم الإسبان لاختطاف أولاد المسلمين، قال بعد أن عرف أفراد قبيلتهم التي كانت تسكن بقرية كرشتل « التي تبعد عن وهران بنحو 20 كلم » قال : « وسكنوا بها في القرن الثامن من الهجرة وبنوا بها مدشرا محصنا بالجبال من البر، لا طريق له إلا من جهة موعرة، وكانت بتلك الأرض عيون عذبة منهجرة، فاستقروا بها للآن. وكان شأنهم مع الإسبان جلب الأخبار لهم، وتغطيس الناس، فهم المغاطيس. ويقال لهم المغطسون فهذا الاسم هو لهم على الحقيقة، ولغيرهم على المجاز لعملهم عملهم اقتداء بهم. ويحكى عنهم أنهم غطسوا إمامهم الذي يصلي بهم، بأنهم باعوه للإسبان غفلة منه وكيفية التغطيس أنهم يأتون بدوابهم بالدواوير البائعين للعطرية ومعهم مناطق من الجلود الغلالية، فاذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى، وإذا رأوا فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه، وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم وحملوه على دوابهم، ومشوا به ليلا لوهران، فيبيعونه للإسبانين، وينتفعون بثمنه، هذا دأبهم لعنهم الله واخزاهم وأخلا الأرض منهم ومسكنهم حال انحصارهم بالمسلمين بالأودية التي بساحة وهران، حذو البرج الأحمر أسفل خنق النطاح، وكانت لهم زوارق يسافرون فيها من مدشهم لوهران إذ اشتد عليهم الأمر وسدت عليهم الطرق البرية، يحملون فيها سائر الخضر ونحوها، وكان الإسبان يولون لا يقطعون عنهم في البحر، لأخذ ما يفتقرون إليه من عندهم، وكان من الكرشتليين بعض الأعين للنواحي الشرقية والقبلية.

ولهذا كثر عدد الربط طوال شواطئ البلاد وكان الكثير منها يشرف عليه ويؤسسه علماء الدين باتفاق مع السكان، وقد رأينا أن كثيرا من الرحالين والجغرافيين والمؤرخين ذكروا بعض هذه الرباطات، التي كانت في أوقات الخطر تتحول إلى مراكز حربية، وحصون عسكرية، ذكر ابن حوقل وكذلك البكري والإدريسي كثيرا من هذه الرباطات التي شاهدها أو ذكرت لهم. كرباط ماسة بجنوب المغرب الأقصى ورباط شاكر، ورباط سلا، وتيط والمنستير، وربط رادس، وسوسة، وشرشال، ووهران وندرومة وجبل أرزيو وغيرها، والكثير من هذه الربط يرجع عهده إلى زمن الفتوحات كرباط ماسة الذي يرجع عهده إلى زمن الفاتح الشهير عقبة بن نافع، ورباط شاكر المعروف اليوم بالمغرب « بسيدي شاكر » وهو على ضفة وادي نفيس بحوز مراكش، وفيه دفن المجاهد العربي شاكر من أصحاب عقبة بن نافع، وقد بناه يعلى

بن مصلين، أحد رجال رجاجة السبعة، الذين يقال أنهم وفدوا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم بمكة فأسلموا ورجعوا إلى المغرب دعاة ومبشرين بالدين الإسلامي الحنيف، وكذلك أقام المسلمون رباطا آخر بشمال تامسني، على ضفة نهر أبي رقراق أو وادي سلا كما يسميه ابن حوقل الذي وصف هذا الرباط بقوله « والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون أو ينقصون، ورباطهم على برغواطة و « برغواطة هذه قبيلة بربرية تنتمي إلى مصمودة كانت تسكن في هذه الناحية وانتصرت لمسيرة المطغرى، الذي ثار على العرب سنة 122 هـ وانتحل مذهب الخوارج الصفرية، وبقي أفراد قبيلة برغواطة في حالة حرب وسلم مع المسلمين إلى أن خضد شوكتهم المرابطون الملتزمون في القرن الخامس الهجري ».

وقال البكري : « ويقال أن الذي جلب الساقية إلى مدينة السوس عبد الرحمن بن مروان، أخو محمد الجعدي، وأنه هو الذي عمر وادي السوس إلى وادي ماسة، مسيرة يومين، عليه قرى كثيرة، وهو ينصب في البحر المحيط، وماسة التي أضيف إليها الوادي رباط مقصود عندهم، له موسم عظيم، ومجمع جليل، وهو مأوى للصالحين، وقد عرف البكري أيضا رباط سوسة ورادس والمنستير بقوله في « المسالك والممالك ».

« وخارج مدينة سوسة محارس، وروابط ومجامع للصالحين وداخلها محرس عظيم كالمدينة، مسور بسور متقن، يعرف بمحرس الرباط، هو مأوى للأخيار والصالحين، داخله حصن ثان يسمى القسبة .. إلى أن يقول .. ومن محارس سوسة المذكورة محرس المنستير ، الذي جاء فيه الاثر المتقدم الذكر .. ثم يقول وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل، يكون مدار القوم عليه، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين، قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين، دون الأهل والعشائر». أما رباط رادس فهو الذي رباط فيه المجاهدون الفاتحون في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وقال الصحابي الشهير أنس بن مالك وزيد بن ثابت للمجاهدين « من رباط برادس يوما فله الجنة حتما » وقال لعبد الملك بن مروان : « امدد هذه البلاد، وانصر أهلها، ليأمنوا من العدو، ويكون لك ثوابها وأجرها، فإنها من البلدان المقدسة الخ ...»

ومن الرباطات المشهورة أيضا في المغرب العربي رباط وهران ، ويسمى برباط صلب الفتح ، وسبب تسميته بذلك أن تاشفين بن الملك علي بن يوسف بن تاشفين ، آخر ملوك دولة المرابطين الملتزمين للمتونيين لما اشتدت الحرب بينهم وبين الموحيدين وانتقلت رحاها من المغرب إلى الجزائر ، سيره والده علي بن

يوسف علي رأس جيشه، ليكون قبالة عبد المؤمن بن علي، فمات أبوه ويئس تاشفين من ربح المعركة فقصد وهران مركز أسطولهم لينسحب منها إلى الأندلس، فدخلها مختفيا وصادف ليلة سبع وعشرين من رمضان، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. فذهب تاشفين مختفيا مع ثلة من أصحابه إلى رباط وهران للحضور في إحياء ليلة القدر، وكان الموحدون منه بالمرصاد منذ دخل وهران، وحاصروه بالرباط، واحرقوا عليه بابه، فخرج تاشفين منطيا جوداه فترامى به حتى تردى من جرف فلقى حتفه، وقتل أصحابه الذين كانوا برفقته، ولا علم لعسكره بذلك. ولما بلغ الخبر إلى عبد المؤمن بن علي، التحق بوههران، وسمى ذلك الرباط، برباط صلب الفتح، بدلا من رباط صلب الكلب الذي كان مشهورا به قبل هذه الواقعة.

وقد عرّف البكري رباط ارزيو بقوله : « وبقر مدينة أرزيو جبل كبير فيه قلاع ثلاث مسورة، رباط يقصد إليه، وقال البكري أيضا في التعريف برباط ندرومة ما يلي : « ومدينة ندرومة هي في طرف جبل تاجرا، وغربيها وشمالها بسائط طيبة ومزارع، وبينها وبين البحر عشر أميال .. إلى أن يقول .. وله مرسى مأمون وعليه حصنان، ورباط حسن مقصود يتبرك به ».

وقد ذكر أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني، المعروف بالجد وبالخطيب، والمتوفى بالقاهرة سنة (781هـ - 1379م). وهو من مشائخ المؤرخ ابن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب السلماني قال في تأليفه «المستند الصحيح الحسن»، أن الملك أبا الحسن المريني لما كثرت هجمات القراصنة الأوربيين على شواطئ المغرب العربي في عهده، أنشأ ربطا طوال هذه الشواطئ : « وإذا وقعت النيران في أعلاها، تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحو شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون، نظار، وطلاع، يكشفون البحر، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين، إلا والتنفير يبدو في المحارس، فأمنت السواحل في أيامه السعيدة ».

وكان هذا النوع أي الاتصال بين الرباطات، والمنارات على طريق إيفاد النيران معروفا من قديم. ذكر بعض المؤرخين لدولة الأغابة « أنه كان لبني الأغلب علائم نارية، يبلغ بها الخبر في الليل من طود إلى طود بسواحل الزاب وغيرها من المغرب بحيث ينتقل الخبر من سبتة إلى الاسكندرية في ليلة واحدة ».

ثم ظهرت هذه الرباطات، وتطورت بصورة جلية، ونظمت بعد الإحتلال الإسباني لمدن سواحل المغرب العربي، وكان جلها يؤسس ويشرف عليه علماء الدين ورؤساؤه. حيث تبين ضعف الملوك عن المقاومة وتخاذل الأمراء، حتى إن الكثير منهم كانوا يقدمون خدماتهم، وتعاونهم للمحتلين، ويتعهدون لهم بدفع الجزية، وإمدادهم بما يحتاجونه من العتاد، والتموين مما هو مشهور عند المؤرخين.

وقد احتفظ لنا التاريخ ببعض الوثائق تثبت كيفية إنشاء هذه الرباطات. منها وثيقة مؤرخة في سنة 954هـ الموافقة لـ 1548م بخط العلامة الشيخ عبد الرحمن اليعقوبي، صاحب المعهد المشهور الآن بمعهد اليعقوبي بنواحي ندرومة. وهذه الوثيقة، عبارة عن معرض لمؤتمر دعا إلى انعقاده العالم المذكور بعد احتلال الإسبانيين لتلمسان، وكان رؤساء القبائل الذين استجابوا لدعوته، هم رؤساء قبائل انقاد، وبني سنوس وترارة، ومطغرة، وبعض علماء تلمسان وأعيانها، تعهدوا بإمداد الرباط بالمال والرجال، ثم لما ظهر الأتراك واحتلوا تلمسان، نبذ هذا المشروع وانتقل صاحبه إلى المغرب.

ومثل هذه الوثيقة التي تظهر لنا تطور الرباط في ذلك العهد، نجدها أيضا بالمغرب الأقصى بعد احتلال بعض شواطئه إثر غارات البرتغاليين، وظهر العالم المجاهد الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد العياشي الذي تزعم المقاومة ونادى بالجهاد، وأبلى في سبيله البلاء الحسن.

ذكر كثير من المؤرخين ومنهم الناصري صاحب الإستقصاء : أن العياشي جمع مؤتمرا لمبايعته، قال الناصري عن المؤتمرين : « وقدموه على أنفسهم والتزموا طاعته، وأن أي قبيلة خرجت عن أمره، كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها حتى تقى إلى أمر الله، فأعطوا بذلك خطوطهم في ظهير، وأنهم رضوه وقدموه على أنفسهم ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه، من تامسنا إلى تازي، وكان الحامل له على طلب ذاك منهم أنه بلغه عن بعض طلبه الوقت، أنه قال : « لا يحل الجهاد إلا مع الأمير، ففعل ذلك خروجاً عن تلك الدعوة الواهية ».

أنشئت معظم الرباطات في بدايتها للعبادة والتعلم، ثم أنها اتخذت عند ما دعت الحاجة، بعد شن غارات الأعداء على ربط ومراكز حربية. وذلك كرباط يحيى بن إبراهيم اللمتوني الذي كان يعلم فيه ويدعو للإسلام عبد الله بن ياسين الجزولي. وتتلذد لعبد الله بن ياسين جل القبائل المجاورة، ثم استحال هذا الرباط إلى مركز انطلاق لأعظم دولة إسلامية عرفها الإسلام بالمغرب العربي والأندلس، وهي المعروفة بدولة المرابطين الملتمين واللمتونيين .

ولهذا اشتبه على كثير من الكتاب والمؤرخين الرباط بالزاوية، وبقيّة المعاهد الموجودة في قمم الجبال.

والحقيقة أن الرباط غير الزاوية، فإذا وجدنا الرباط مرتبطاً بعهد الفتوحات الإسلامية، فإن الزاوية عرفت في أوائل القرن الثامن الهجري، فكانت تطلق على مكان معد للعبادة، كالمساجد، ويشتمل على

المرافق للطلبة المجاورين بها، وإيوائها للواردين عليها، وعابري السبيل. وقيل أنها عرفت في المغرب بعد القرن الخامس الهجري، وسميت في بادئ أمرها «**بدار الكرامة**» كالتي بناها الملك يعقوب المنصور الموحي في مراكش، ثم أطلق المرينيون على الزوايا التي بنوها في عهدهم اسم «**دار الضيوف**» ومن ذلك الزاوية العظيمة، التي أسسها الملك أبو عنان المريني خارج سلا، وهي التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته وزاوية شالة في الرباط، التي دفن فيها الملك أبو عنان والده أبو الحسن، وزارها لسان الدين ابن الخطيب وخاطبه فيها بخطبته الشهيرة في تاريخ الأدب العربي.

ثم عرفت الزاوية بعد ذلك في المغرب العربي، بأنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية، يجتمع فيها مریدهم لذكر الأوراد. كما كانت تتخذ مأوى لطلبة القرآن والعلم، وبقيّة الزوار الذين يقصدونها للاستفتاء والصلح بين المتخاصمين. وكثير هذا النوع من الزوايا ابتداء من القرن العاشر، بعد هجمات البرتغال والإسبان على شواطئ المغرب العربي. وقد كان لبعض هذه الزوايا شأن عظيم، استحالت إلى ممالك وذلك كالزاوية الدلائية بالمغرب التي كتب عنها كثير من المؤرخين، وخصها أخيراً الأستاذ محمد حجي بدراسة قيمة، نال بها جائزة الدراسات العليا من جامعة الرباط. والزاوية السنوسية بليبيا فقد استحالت هي الأخرى إلى مملكة.

ثم ظهر نوع آخر من هذه المعاهد، هي زاوية ولا رباط، تعرف في بلاد القبائل بالمعمرة، وهي عبارة عن معاهد لتعلم القرآن وحفظه، أو لدراسة العلوم. وقد انتشر هذا النوع بوادي بجاية بعد احتلال إسبانيا لبجاية، ومغادرة سكانها، خصوصاً الجالية الأندلسية التي كانت لاجئة فيها. فإن الكثير من أفرادها أسسوا معاهد في بنى يعلى العجيسي، وبنى وغليس، وكانت هذه المعاهد أو المعمرات، لها أحباس عامة، وقوانين داخلية، انتشرت في معظم معاهد القبائل الصغرى والكبرى، وهي تمتاز عن نظم الزاوية. إذ الزاوية في الغالب تخضع لتصرف شيخ الطريقة، أو مقدمه. أما هذه المعاهد فإن لها قوانين داخلية، محكمة وإذا وقع خلل أو سوء فهم لتطبيق تلك القوانين، أو تدخل السلطات، فإن المتخرجين منها هم الذين يرجع لهم الأمر، فيجتمعون لحل المشاكل. وبعض هذه الزوايا أو المعاهد المسماة بالمعمرة، كثيراً ما كانت تشد أزر الرباط في أوقات الحروب، وتعينه على أداء مهمته. فمن ذلك ما ذكره أبو الحسن الشریف في «كامل البغية»، نقله عنه صاحب تعريف الخلف برجال السلف: قال «خرجنا إلى ثغر تفرتنس فلقينا سيدي محمد بن علي، وأنزلنا بزوايته في مجاجة، وكنا في جوع ونحن نحو 1300 (ثلاثة عشر مائة نفس)، وقصدناه للزيارة

فأكرمنا خارج الزاوية لكثرتنا، وكانت خيولنا ذكورا وإناثا، فقال لنا اتركوها، من ألف بين قلوبكم يؤلف بينها، وأمرنا بالجلوس على 24 جلسة، وأفاض علينا الثريد واللحم والعسل والسمن الخ...»

لنرجع إلى الحديث عن الرباط. فإن في عهد الأتراك، لما اشتدت الحرب بينهم وبين الإسبان، اعتنى الأتراك ببعض الرباطات، وتعاونوا مع مؤسسيها، وعلى حد تعبير المعاصرين، أمموها ونظموها نظاما لم يعهد من قبل في تاريخها. وكان من حسن حظ التاريخ، أن خصصت لهذه الربط التي أحيها الأتراك تأليف، تعرض فيها مؤلفها لذكر هذه الربط، ووصفوها وصفا مفصلا، منها تأليف « الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية » لمحمد المصطفى بن زرقة، و«الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني» لأحمد بن سحنون، فإنهما تحدثا بمزيد من التفصيل والتوضيح عن رباط وهران الذي أحياه الباى محمد بن عثمان فاتح وهران سنة 1266هـ.

وكما تعرض لرباط وهران عبد الرحمن الجامعي الفاسي، شارح أرجوزة الحلفاوي، التي تعرض فيها مؤلفها لفتح وهران سنة 1119هـ على يد باشا الجزائر محمد بكداش. اذ دام احتلالها (280) ثمانين ومائتي سنة، إذ احتلت سنة 914 هـ، وفتحها لأول مرة بكداش باشا سنة 1119هـ، ثم استرجعها الإسبان بعد بقاءهم بها خمسة وعشرين سنة، سنة 1144 هـ وبقوا بها إلى أن أخرجهم الباى محمد بن عثمان سنة 1206هـ.

قال صاحب الثغر الجمانى يصف الرباط الذي أحياه الباى محمد بن عثمان :

ورتب المرابطين في الجبل * * * من كل حبر عن هوى الموت جبل

وكل مقدم همام وبطل * * * منذ بدا باد الضلال وبطل

مؤامرا لشيخنا الجلال * * * محمد الأحق بالإجلال

ومحمد بن عبد الله الجلالى، الذي ولاه الباى لرئاسة الرباط كان من أكابر علماء البلاد، ومديرا للمدرسة التي أنشأها الباى في قاعدة ولاية معسكر، وسماها بالمدرسة المحمدية. كما عين لمساعدت قاضي القضاة، السيد الطاهر بن حواء، وكتبه الخاص محمد المصطفى بن زرقة، مؤلف الرحلة القمرية المتحدث عنها. قال المؤلف، أن الباى محمد بن عثمان، لم يزل منذ وليّ يتحيل على الظفر بالكفرة، وينصب لهم المكائد، والخدع الشبيهة بالأشراك للطير ليقبض. فتارة يوجه لهم المهرة بالسباحة في البحر، فيبيتون من قدروا عليه منهم في بيوتهم ويأتون برؤوسهم، وتارة يرصد لهم الكمين قرب أسوارهم حتى يظفروا

بهم، وتارة تحمل عليهم طلائع جنوده، فيختطفونهم مخطف السقور للبيعة – إلى أن يقول - ثم ظهر له أيده الله فقرر فيه المرابطون للتضييق على الكفرة. فنادى في رعيته، من ارتحل إلى الرباط سقطت عنه المطالب المخزنية، وبقي محترما، موقرا. فاجتمعت فيه أمة من الناس، من كل ناحية بأموالهم، وأولادهم فنزلوا فيما بين سيدي معروف والبريدية إلى عين تانشالت. وجعل عليهم قوادا يقومون بأمرهم..... ولعمري لقد بلغوا غرضه في المضيق على الكفرة، حتى منعوهم من إدامة الخروج، وقصرت أيديهم عن نيل أكثر ما كانوا ينالونه من الغياض والمروج. وانقطعت غارة المغاطيس فصاروا لا يبلغون وإن جهدوا مبلغ أصوات النواقيس من بعد أن كانوا يغزون البلاد، ويقيمون مع المسلمين عند حلهم أسواق البلاد. فكم لهم من غارة شهيرة، انتهبوا فيها أموالا كثيرة، تارة يفوزون بها فيبلغونها لناديتهم، وتارة يعترضهم المسلمون فينتزعونها من أيديهم، ثم حسم مادتهم، وقطع شافتهم، بجمع الطلبة في الجبل. وهنا يذكر لنا المؤلف، بمزيد البيان والتوضيح رباط وهران فيقول: «وقد كان الأمير جهز نحو الستة من الطلبة ألبسهم لباسا جيدا، ودفع لهم عدة رفيعة ووجههم لجمع الطلبة وترغيبهم في الرباط، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى قدموا من مختلف الجهات، فبعث لهم الأسلحة، وكل ما يحتاجون إليه ولم يزل مددهم يتواصل حتى أربى عددهم عن الحد، كل هذا، وهو يوجه لهم الأطعمة والسمن والزيت والفواكه ونحوها، وبالشاة والبقر للذبح ربما استحدث من السلاح والبارود الخ .. وبعث مع ذلك في كل شهر من يقسمه عليهم، من أمائه، حتى ترتفع التهم، منهم عن أميره عليهم وقد كان مطبخهم واحدا، تأخذ كل جماعة منه ما يكفيها، فلما كثروا وعجز الطباخون عن القيام بجميعهم ظهر له أن يدونهم خمسة وعشرون في الديوان ويدفع لكل ديوان ما يكفيهم من الطعام والدرهم لشراء المصالح، فبعث من دونهم بعد أن فاوضهم في القدر الذي يكفيهم من ذلك، فاتفق رأيهم على أربعين صاعا من القمح لكل ديوان في الشهر وخمسة وعشرين لمصالحه، فكانوا يذهبون بالقمح لمن يجاورهم من الأعراب يطحنونه لهم بأجرة، فصعب ذلك عليهم، وكانوا لا يفترقون معهم غالبا إلا عن خصومة أو مضاربة، فالتزم لهم بدفعه مطحونا بنقص ريال من واجب كل ديوان، ثم بدا له فبنى له ثلاث إرحاء ماء بنهر مسرقه، بينهم وبينه نحو الثلاثة أميال لجهة الغرب، كل هذا وهم يتزايدون حتى أنهم قسموا الرزق أول رجب على ستين ديوانا، ثم قسمنا على ما ينيف على المائة، وتصدق عليهم أول شعبان، بزيادة ريال لكل شخص، وقد كان اشترى لهم نحو الألف سيف، فأمر. فجعلت لها الأغمد والحمائل ثم بعثها لهم ففرقناها عليهم مع بعض المكاحل التي كان يوجهها اليهم مرة مرة، فتسابقوا إليها وتزاحموا عليها إلى أن آل الأمر إلى أنهم خطفوا بعضها نهبة، ثم ردوه فقسم عليهم سواء» وفي ذلك يقول مؤلف النثر الجماني :

ملتزما لرزقهم جميعا * * * ملبيا لقولهم سميعا

فوقعت هنا لكم حروب * * * زيدت بها على العدى كروب

ومات في أولها المفضل * * * قاضي القضاة الطاهر المفضل

كان اهتمام الباي بالرباط وبساكنيه متزايدا، إذ في كل أسبوع بل في كل يوم يفد عليه المرابطون فانتشرت الأخبية والمضارب - والقياطين، والخيم على جميع تلك الآكام، وذلك الوطاء الفياح فكستها. وما زالت الكتائب تتواصل، والجيش تتراسل، والمواكب تجتمع أعدادها، والأبطال تنتظم أزواجها وأفرادها وهم مشغولون بقراءة القرآن والفقه والنحو، لا يتركون ذلك إلا في أوقات القتال. وبالليل يبيتون يتلون القرآن العزيز، لا يفترون عنه إلا نحو الساعتين من أوقات النوم، ومتى انتبه النائم وجدهم على حالتهم تلك، وسمع التلاوة من كل ناحية في ذلك الوادي، فكانوا كما قيل في سلفهم الصالح رضي الله عنهم : رهبان بالليل أسود بالنهار.

هذا في الجملة رباط وهران، الذي أحياه الباي محمد بن عثمان ، وقد احدث بعد احتلال الإسبان مباشرة كما ذكر الجامعي. إذ كان حصار وهران، وعلى رأس المحاصرين أهل العلم والدين، متوصلا طيلة مدة الاحتلال. وقد أحدث هذا الرباط كما بينا في غير، موقع الرباط القديم المشهور، الذي حوصر فيه آخر ملوك المرابطين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين. ذكرت بعض الفقرات في وصفه كما ذكرها الكاتبان أحمد بن سحنون في الثغر الجماني، ومحمد المصطفى بن زرقة في الرحلة القمرية، وهذا الأخير إهتم بتسجيل معظم رسائل الباي إلى رئيس الرباط، لا يسع المقام لذكرها، وقد اتخذ الباي بهذه المراسلة بريدا خاصا.

وقد اعتنى أيضا بهذه الرباطات بعض المستشرقين، فخصوصا بدراسات قيمة منها العالمان الأثريان HENRI ZERRASSE - RENE BASSET ، حيث كتبوا على رباط تيط بنواحي الجديدة بالمغرب الشقيق، وجورج مارسى الذي كتب عن مسجد أبى مروان بعنابة، الذي كان يجمع بفضل موقعه الجغرافي بين مجمع العباد والمرابطين. إلا أن معظم دراسات هؤلاء المستشرقين، كانت ترجع إلى الناحية الفنية والمعمارية.

وكان هذا الرباط، أي رباط وهران بوادي ايفري غربي ساحل وهران. وقد كان طلبة القرآن، ورجال العلم بالمدينة يحيون ذكره سنويا ، إلا أنه لطول العهد تناسيت أسباب هذه الذكرى، وصار جل الحاضرين يعتقدون أن هذا الاجتماع مجرد إحتفال عادي للطلبة. وقد بقيت هذه الذكرى تقام سنويا بإيفري إلى أوائل الحرب العالمية الثانية ، وكثيرا ما كان يرأسها عالم وهران، الراحل الشيخ الطيب المهاجي.

الفداء والرباط :

أصله من الكتاب آيات متعددة، منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ سورة: التوبة، الآية: 111، أي سواء قتلوا ورجعوا أو قتلوا. ولهذا ذهب بعض الصحابة إلى أن كل مؤمن له بيعة في عنقه، إذ أنه بايع الله على القتال في سبيل الله، وجزأوه الجنة. وقد ذكر الإمام أبو عبد الله الحضرمي الأندلسي، في تأليفه (الفرائد المرويات في فوائد الثلاثيات) أي ثلاثيات البخاري، في حديث يتصل بسلمة ابن الأكوع الصحابي قال : « بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ثم عدلت إلى ظل شجرة، فلما خف الناس قال: يا ابن الأكوع ألا تبائع، قال : كنت قد بايعت يا رسول الله، قال : أيضا، فبايعته الثانية، فقلت : يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبائعون يومئذ ؟ قال: على الموت ».

وقد قام الصحابة الكرام بأعمال فدائية جريئة في عهد النبي ، صلى الله عليه وسلم، وبأمر منه فهي إذن سنة عملية من سنن الإسلام. ومن هذا يتبين لنا أن العمل الفدائي، مشروع كتابا وسنة وإجماعا، وهو نوع من الجهاد الذي حض عليه الشرع، ورغب فيه وأوجبه عينيا على كل مسلم، وأن القائمين به يعدون من السابقين الأولين المستحقين للمدح الذي خص الله به سلفهم في قوله تعالى : ﴿.... لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ سورة : الحديد، الآية: 10. قيل أن أول فدائي في الإسلام هو الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، حيث خلف النبي، صلى الله عليه وسلم ، في فراشه ليلة الهجرة ، تضليلا للمشركين الذين كانوا يتربصون بالنبي لقتله وتفقدوه بالفعل في تلك الليلة ، إلا أنهم كانوا يجدونه ملقى على فراشه ، فاطمأنوا على وجوده ، إلى أن بوغتوا في الصباح عند ما رأوا عليا خارج من المنزل، وعندئذ لم يتمالكوا، فتسابقوا إليه يسألونه عن النبي، أين هو؟ فما كان من علي إلا أن أجابهم بأنه لا يعلم عنه شيئا.

وقد ذكر المؤرخون وأصحاب السير عدة فدائيين من الصحابة والتابعين ، كمحمد بن مسلمة الأنصاري ، ورفيقه أبي نائلة، اللذين قتلا كعب ابن الأشرف اليهودي، المتهم بإيذائه للنبي وأصحابه. قتلاه بأمر منه صلى الله عليه وسلم ، وأن أمثال هذه الأعمال الفدائية، كثيرة. في عهد النبي وفي عهد خلفائه ، وتاريخ الإسلام مترع بروعة التضحية في سبيل الله وحب الفداء .

ثم أن حياة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، نفسها قدوة حسنة للمسلمين عبر تاريخهم الطويل في بذل نفوسهم، وتضحياتهم بأعلى ما يملكه الإنسان في هذه الدنيا ، ألا وهي الحياة. فلقد غزا صلى الله عليه وسلم

سبعا وعشرين غزوة في نحو عشر سنوات ، وبدأ حياة الجهاد بعد الهجرة بعام ، وعمره يزيد عن ثلاث وخمسين سنة، فكان لا ينتهي من معركة إلا ويستعد لمعركة أخرى .

وقد ذكر أصحاب السير بإسهاب مواقفه يوم حنين ، حيث صعد على ربوة مرتفعة ، وقد افترق عنه أصحابه فواجه أعداءه مناديا أصحابه، ومشجعا لهم ، والسهام تتساقط عليه ، فتسابق حينئذ كثير من أصحابه ملبين نداه ، وخاضوا المعارك ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من نجا. وقائمة المستشهدين في هذه الغزوات خصوصا غزوات حنين، وبدر وأحد طويلة ، لا يسع المقام لتتبعها بتفصيل. وإنما لا يفوتنا أن نذكر، أن مواقفه صلى الله عليه وسلم، ومواقف أصحابه توارثها المسلمون خلفا عن سلف ، في مختلف العصور ، وكانت الهدف والمثل الأعلى للمجاهدين في مختلف الأمكنة والأزمنة. فكان المسلم عند ما يخرج للمعركة، يخرج لها مستعدا استعدادا نفسيا ووجدانيا ، ويوطن نفسه على القتل والموت ، قبل يوم القتل والموت .

إن كثيرا من المؤرخين حتى في العصر الأخير، خصوصا الأجانب منهم، وقفوا حيارى مندهشين عن أسباب الانتصارات التي أحرز عليها الفاتحون المسلمون بتلك السرعة التي ضربت الرقم القياسي في تاريخ الحروب العالمية. ولم يسع المسيحيون أنفسهم إلا الاعتراف بروح التضحية، والفداء اللتين كان يمتاز بهما الفاتحون حيث تمكنوا من الانتصار، وإطاحة معظم الدول التي حاربتهم، فعندما جمع البابا LEON الرابع، المؤتمر الشهير للملوك المسيحيين بفرنسا في عهده (886م - 912م) وبحثوا فيه إحداث جيش دولي لمحاربة أعداء المسيح. وكان هذا الجيش أول نواة للحروب الصليبية، ووعد فيها البابا المذكور المحاربين المسيحيين، وعدهم بالجزاء الإلهي لكل من مات مقاتلا، إذ كانت التعاليم المسيحية تحرم في أول عهدها قتل النفس وترى المقاتل الذي يموت في الحرب كقاتل النفس. وكان على رأس هؤلاء الرؤساء البابوات Lactance TERTULLIEN , DRIGENE فكانوا يحرّمون رفع السيوف، وهدر الدماء، إلى أن كان عهد St Augustin الشهير في القرن الرابع المسيحي، فقسم الحرب إلى حربين : حرب مباحة، وحرب محرمة. فالحرب المحرمة، هي التي تمنع وتحرم المقاتل الذي يموت في ساحة الوغى من الجزاء الإلهي، أما الحرب المباحة فلا ومن الحروب المباحة عند المسيحيين، طبعاً هي الحروب الصليبية، إلا أن هناك بعض الكنائس بقيت متشبثة بالتعاليم الأولى، ولهذا أفتى البابا LEON الرابع، في هذا المؤتمر بأن المحاربين في سبيل العقيدة المسيحية ينالون الجزاء الإلهي خصوصا من مات منهم مقاتلا .

واستدل البابا LEON هذا في ذلك المؤتمر، بحروب المسلمين وكيف كانوا لا يهابون الموت، وإنما قال لبليبة أفكار المؤتمرين « أن العرب الذين يشاركون في الجهاد، كان يحدو الأغنياء منهم التضحية في سبيل سعادة شعوبهم وخدمتها أما الفقراء فكان الداعي لهم الحصول على الغنائم، وقد يعين المجاهدين على تسليح النساء والأطفال. حيث أن تعاليم دينهم، ترى أن من لم تمكنه المشاركة في الحرب، فبهذه الإعانة يعد كالمشارك فيها بنفسه ». وهناك بعض المؤتمرين اعترفوا بالحقيقة وقالوا : « إن المسلمين يندفعون للحرب المقدسة بأسباب أخرى، ويعرفون خصوصا فكرة الفدا، وما أعده الله للمجاهد، إلا أنهم قالوا، إن هذا الجزاء الموعود به قاتل النفس يعد منكرا في التعاليم المسيحية ».

والذي يهمنا في هذه الدراسة، هو أن الفدا في الإسلام، كان موضع اهتمام أعداء المسلمين في مؤتمراتهم ويقرءون له ألف حساب. وقد ذكر بعض علمائنا: « أن بعض الصحابة سئلوا من بعض التابعين، فقالوا لهم : ما لكم أنتم في قلة وتهزمون الجيوش، ونحن الآن عدد كثير، ولم يكن لنا ما كان لكم من النصر ؟ ». فأجابهم أحد الصحابة قائلا : « إنا نحن كنا في الحروب نفضل الموت على الحياة، وأنتم ربما صرتم تفضلون الحياة على الموت، فوقع في قلوبكم الرعب ».

اشتهر المسلمون عبر تاريخهم بتوطين نفوسهم على التضحية والاستشهاد في سبيل الله، فرادى وجماعات وأن تتبع أشهر الوقائع لا يسعه مجال هذه الدراسة المحدود، وإنما لا يفوتنا أن نذكر على سبيل المثال بعض المواقف وقفها المسلمون عند ما كانوا يصطدمون بالحوادث الجسام، فتهون عليهم نفوسهم كما ذكرنا فرادى وجماعات. يحدثنا التاريخ أن أحد رفقاء المهدي بن تومرت، وتلميذه عبد المؤمن بن علي لما كانوا في طريق عودتهم من بجاية إلى المغرب، وقضوا ليلة ببعض القرى. تقدم ذلك الرفيق لعبد المؤمن وطلب منه أن يستبدل معه مكان نومه، فأجابه عبد المؤمن إلى رغبته. وفي الصباح وجد الرفيق ميتا فأدرك السر وتحقق أن ذلك الرفيق فداه بنفسه، كان إسم هذا الفدائي - إسماعيل بن يحيى الهزرجي - وقد ذكر الرحالة ابن جببر الأندلسي، في رحلته في الحديث عن مدينة صور، وهي إذاك تحت حكم الصليبيين قال : « وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقى بأيدي المسلمين ولهم فيها مسجد آخر، فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين، إنها أخذت منهم سنة ثمان عشر وخمسمائة وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة بعد محاصرة طويلة، وبعد استيلاء المسغبة عليهم، ذكر لنا أنهم انتهوا منها إلى حال نعوذ بالله منها، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم، وأبناءهم في المسجد الجامع، ويحملوا السيف عليهم غير من تملك النصارى لهم، ثم خرجوا إلى عدوهم بعزيمة نافذة، ويصدموهم صدمة صادقة، حتى يموتوا على دم

واحد، ويقضي الله قضاءه، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم، واجمعوا على دفع البلد، والخروج منه بسلام، فكان ذلك».

هذا وإن منع الفقهاء والمتورعون سكان صور من تنفيذ ما عزموا عليه من قتل أهلهم غيرة من تملك النصارى لهم، فإن التاريخ القريب يحدثنا عن مسلمين آخرين نفذوا بالفعل هذه الخطة، حيث قتلوا نساءهم وأبناءهم، ثم قتلوا أنفسهم عندما تحققوا من وقوعهم في قبضة الأسر، وكان الأسر في هذه الواقعة عند إخوانهم المسلمين لا عند النصارى مثل أصحاب صور، وهذه الحادثة المؤلمة نذكرها للاستدلال على ما يتعلق ببحثنا هذا، إذ كان المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وفي مختلف العصور عند ما يصطدمون بالحوادث الجسام كان شعارهم دائما « النار لا العار » وقعت الحادثة الثانية هذه لجيش الأمير عبد القادر عندما كان بالمغرب وتوترت العلاقات بينهم وبين جيش ملك المغرب الشقيق، ولنترك الكلمة للمؤرخ قال وهي وجهة نظر المغرب الرسمية : « إثر الخلاف الذي وقع بين الجيشين بعث الملك لجيش الأمير عبد القادر عسكريا من الشراردة فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتل شديد، ومن ذلك أنهم اعتصموا بربوة، وجعلوا يقاتلون على حريمهم وكانوا رماة، لا تسقط لهم رصاصة في الأرض، فكانوا كلما توجهت إليهم طائفة من الجيش « المغربي » استأصلوها بالرصاص، وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونها أشبارا يتترسون بها ويقاتلون من خلفها، ولما أعيا الجيش أمرهم، حملوا عليهم حملة واحدة، حتى خالطوهم في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف، وطاعنوهم بالرماح والنوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم ونساءهم بأيديهم فرارا من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسر، ثم يسترسل النصاري في الحديث ويقول إن الأمير عبد القادر همد ذات ليلة إلى طائفة من جنده نحو الخمس عشر مائة على ما قيل، كلهم بطل مجرب - انتقامهم انتقاء، وكان جيش الخليفة أي ولي عهد ملك المغرب منقسما قسمين بعضه معه، وبعضه مع أخيه، فصمد الحاج عبد القادر إليهما بتلك العصبة، الذين هم فتيان الكريهة، ومساير الهيجاء، وجمرات الحرب، طالما هد بهم الوقائع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيين.. إلى أن يقول ... فهلك من المحتلين بسبب ذلك بشر كثير، وأما الأمير عبد القادر فإنه فر في أصحابه بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم، ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم، وجدوا فيهم من الجرحى نحو ألف، ومن القتلى ما يقرب من ذلك، وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الأمير عبد القادر الذين أجهدهم القتال من حملهم نحو الخمسين، وأسروا نفرا أحياء، فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتال ما قضا منه العجب، ووجدوا عليهم لبس رفيعة، مطرزة بالصقلي والحرير ونحو ذلك : والشاهد عندنا من رواية هذه القصة هو قول المؤرخ النصاري « كانوا يقتلون أبناءهم بأيديهم فرارا من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم

في قبضة الأسر»، وقوله في ختام حديثه « وأسروا نفرا أحياء فشهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضاوا منه العجب، ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلى والحرير ».

فاكتفى بهذا القدر للاستدلال على ما ذكرناه، وإلا فلو تتبعنا أشهر المواقف في هذا الميدان، لاحتاج ذلك إلى مجلدات. فمواقف الأندلسيين ببلنسية على ما حكى ابن الأبار، ومواقفهم بالبيازين بعد سقوط غرناطة لا يقلان روعة ولا بسالة عما تحدثنا عنه.

ولنتقل الآن إلى الحديث عن نظام الفدا الذي ظهر في بلاد القبائل بعد الاحتلال الفرنسي وبهر كثيرا من الكتاب خصوصا الضباط الفرنسيين الذين خصصوه بتأليف قيمة منها تأليف الجنرال HANOTEAU الذي سماه « بلاد القبائل وعوائد سكانها LA KABYLIE ET LES COUTUMES KABYLES ».

المسبلون :

كان هذا النوع من الفدا يسمى في بلاد القبائل "بإمسبلن"، وهو جمع مسبل بلغة البلاد ، وهو يطلق تماما على الفدائي في بقية البلاد الإسلامية، إلا أنه يختلف عنه في بعض الجزئيات، تخص ضبطه ونظامه في بلاد القبائل، لا يجند المسبل إلا بطلب وإذن المسؤولين، السياسيين والعسكريين عندما تعلن البلاد حربا مع دولة أجنبية للدفاع عن حمى الوطن ، أو طرد العدو المحتل. ومن هذا لا يجند المسبل للحروب الداخلية بين القبائل بعضهم لبعض ،كيفما كانت الأسباب الداعية لشعوب تلك الحروب. وبعد الحصول على الإذن من المسؤولين المذكورين الذين يحددون عدد ما يحتاجونه ، تتقدم شخصية دينية تتمتع بالنفوذ والسمعة الطيبة في البلاد، فيفتح سجلات لتسجيل المجندين ، وفي الغالب يقع ذلك في الأسواق والمجتمعات العامة. ويشترط في المسبل أن يكون أعزبا ويقدمه أهله ، وبالخصوص والده إن كان حاضرا ، ويقبل المتزوج إن دعت الحاجة إلى ذلك، وبعد التسجيل لا يقبل بأي وجه رفض المجند للخدمة ، كيفما كان العذر ، اللهم إلا إذا كان والده غير حاضر وتعرض له ، فإنه يقبل منه ذلك ، وقد يحاط هؤلاء المجندون بمجرد تسجيلهم في فرقة المسبلين بالاحترام والتقدير. ويتولى الجماعة أي المسؤولين السياسيين والعسكريين ، النفقة عليهم وعلى ذويهم ، ويقدم لهم الشعب جميع الهدايا من سلاح وتموين لهم ولأفراد أسرهم ، ثم بعد الانتهاء من التسجيل تقدمهم الشخصية الدينية للجماعة ويكون ذلك في حفل عمومي ، فيصطف المسبلون صفوفًا ، ويرتل القرآن ، ثم تقرأ بعض الأدعية من الحاضرين، والمسبلون صامتون، لا يشاركون بقية الحاضرين لا في قراءة القرآن ولا في الأدعية وتعد تلك القراءة بمثابة الصلاة على الجنازة. وحينئذ تعين الجماعة، أي

المسؤولين القائمين بالدفاع عن البلاد، مهام أولئك المسبلين، فتخطط لهم البرامج التي يتبعونها، والمواضيع ونوع الأسلحة ، وحتى الأمكنة التي يذهبون إليها أو ينسحبون منها في الكر والفر، بحيث لا يجاوز المحل المعين له في حالة الاقتصار أو في حالة الانسحاب. ثم إن المسبلين في حالة الحرب لا يختلطون ببقية المجاهدين ، وبعد الاستشهاد تتخذ لهم مقابر خاصة تدعى بتمقبرت أمسبلين. أما الذين ينكصون على أعقابهم ، أو يفرون من ساحة الوغى فإنهم يهجرون ، ويحاطون بالخزي والعار ، وكثيرا ما يعدمهم أقاربهم للعار الذي يلحق بالأسرة ، وحتى القرية والقبيلة. والناكص الذي ينجو من الإعدام، تضيق عليه الأرض بما رحبت فيهاجر البلاد ، وينقطع خبره وأثره .

وأول ما ظهر هذا النوع من المسبلين في بلاد القبائل في يونيو 1854م عند الاحتلال الفرنسي وثورة الشريف بوبغلة فكان الجنرال الوالي العام بالجزائر RANDON ، ورفيقه الجنرال **ماكماهو** MAC MA-HON قد خرجا على رأس الجيش الفرنسي في جولة تفقدية، إذ كانت الحرب أوشكت على النهاية. فعندما وصلا إلى قرب بني يتورغ رأيا النيران موقدة على قمم الجبال فتوجسا خيفة ، إذ إيقاد النيران بقمم الجبال كان بمثابة الأذن لاجتماع المجاهدين ، وتهيئتهم للحرب ثم اطلعوا على الحقيقة، وهي أن امرأة من سكان الناحية تزعمت المقاومة، ورفضت الاستسلام ونادت بالجهاد، وأحييت سنة المسبلين، الذي قال بعض من كتب عنها أنها كانت قديمة جدا ببلاد القبائل. وكانت هذه المرأة هي **لآ فاطمة** كما كان يدعوها السكان، ولقبها الفرنسيون بنبية الجرجرة LA PROPHETESSE DE DJURDJURA .

وقد وصفها الضباط المذكورون ، أنها كانت مرتدية حائكا أحمر في ذلك اليوم ، وهي فوق ربوة مرتفعة محاطة بنساء القرية ، يحرضن المسبلين على الموت في سبيل الله ، ويذكرن المسبلين بما وعد الله به الشهداء. وكانت المقاومة، من أعنف ما لقيه الجيش الفرنسي في حروبه ببلاد القبائل، رغم قلة عدد المسلمين الذين اطلع عليهم فيما بعد. إن السيدة فاطمة، عندما أعلنت الحرب كان يشد أزرها إخوتها ، وتولى أحدهم وهو السيد الطاهر تجنيد المسبلين، إذ أذن له في تجنيد ألف مسبل ، فلم يسعه الوقت إلا لتجنيد 157 مسبلا، وهاجمه الفرنسيون. ورغم قلة هذا العدد، أمكن للزعيمة أن تدافع عن قريتها سومر ببني يتورغ واستشهد جل المسبلين الذين دافعوا الأبطال باعتراف أعدائهم ، وبقيت السيدة فاطمة أو **لآ فاطمة**، كما كان يدعوها السكان ، تواصل المقاومة والجهاد تارة على رأس المسبلين وتارة على رأس المجاهدين إلى أن أسرت سنة 1857م ، وسجنت صحبة ما تبقى من إخوتها ببني سليمان قرب مدينة الأخضرية الحالية. وكان

السكان وبالأخص النسوة يزورونها من جميع البلاد القبائلية ، حتى أن السلطات الفرنسية أحصت عدد زوارها الذين بلغوا في يوم من الأيام مائتي نسمة ، معظمهم من النساء والصبيان ، ولم ينقطع سيل هؤلاء الزوار طيلة أيام حياتها ، إذ توفيت رحمها الله سنة 1863م.

كانت معركة **لآ فاطمة** نسومر ببني يتورغ، هي التي ظهرت فيها لأول مرة حرب المسبلين ، وذلك سنة 1854م، ثم كانت ثورة سنة 1871م وهي المشهورة بثورة المقراني، وصهره الشيخ محمد أمزيان بن الحداد. فظهرت حينئذ حرب المسبلين بصفة جلية، واعتنى بها أيضا قادة الجيش الفرنسي وخصوصا بتأليف قيّمة ذكروا فيها النظام الخاص بالمسبلين، وهو لا يختلف عما سبق ذكره. ولنكتف بذكر واقعة اهتم بها المؤرخون وكتبوا عنها بتفصيل، كتبوا عن موقف هؤلاء المسبلين، حيث كلفوا بالهجوم على حصن أربعاء نتي راتن المشهور فورناصيونال.

كان عدد المسبلين المجندين للهجوم على هذا الحصن 2280 مسبلا، فحاصروا الحصن ابتداء من 14 أفريل 1871 م ، وكانوا تحت قيادة الشيخ محمد وعلي أو سحنون، وجمعوا أثناء الحصار 700 سلما منها المتخذة من الحبال ومنها السلاليم الخشبية، واتفقوا على أن الهجوم يقع ليلة 28 مايو، وقد وصف قائد الجيش الفرنسي في تقريره الرسمي الذي أرسله إلى رؤسائه يصف لهم فيه الواقعة، وكان هذا التقرير مؤرخا في 16 يونيو قال : " إن ليلة 22 مايو كانت هائلة بخلاف الليالي السابقة ، فلم يسمع أدنى صوت من خارج الحصن ولا أية طلقة نارية فعندما أوقدوا القناديل المستعملة بالحصن كان الهدوء التام في الحصن وفي البلدة ".

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمع نشيد ديني من روابي تابلبلت ، وبعد ربع ساعة سمع نشيد آخر من روابي أورفيا ، ثم تلا هذين النشيدين صمت دام ربع ساعة ، وحينئذ سمعت أصوات مزعجة، من الشعاب المحيطة بالحصن ، وأطلقت نيران البنادق صوب الحصن، وكانت السلاليم مجهزة فصعد عليها المسبلون وصاروا ينادون فرادى الواحد بعد الآخر بأعلى أصواتهم " أني أنا فلان ابن فلان وأنى مسبل"، ويطلق نيران ببندقيته إلا أن المقاومة كانت عنيفة من الحصن ، وكان كلما سقط المسبلون من أعلى السلاليم ، إلا ويخلفهم آخرون. وهكذا، دامت المعركة إلى أن طلعت الشمس ولم تأت بالنتيجة المرجوة، إذ كان المحاصرون على علم من الهجوم في تلك الليلة، فالموظف المدعو أمين الأمان، بذل جهودا لتبليغ الخبر قبل الهجوم بليلة إلى قائد الحصن الفرنسي. وكيفما كانت تلك النتيجة فإنها تركت آثارها عند المحاصرين إذ لما انسحب المسبلون في الصباح وتركوا بعض السلاليم حملوا أمواتهم وجرحاهم إلا أنهم

تقدموا للموت بشجاعة لم يعدها ضباط الحصن في الحروب التي شاهدها ، إذ كان معظم ضباط حرب الاحتلال الفرنسي ممن شاهدوا وخاضوا غمار حروب نابليون الأول بأوروبا وروسيا خصوصا ، عندما رأوا أن بعض المسبلين كانوا يربطون بعضهم بعضا بالحبال حتى لا يتأخروا ويشاركون بعضهم بعضا في الاستشهاد، وكان هذا الربط يسمى بأمنسغراس إيشدان ، ولم يخف الضباط الفرنسيون إعجابهم بهذا النوع من المقاتلين في تقاريرهم الرسمية إلى رؤسائهم، حيث يلفتون أنظارهم أن الأمة التي تهتدي وتحافظ على هذا النوع من النظام الحربي ينبغي أن لا يستهان بها ويقرأ لها حسابها .

بحث كثيرا من الكتاب الأوروبيين، وبالخصوص الضباط الفرنسيين. الذين ارتطموا بهذا النوع من الفدائيين ببلاد القبائل، سواء في حرب الاحتلال 1854م، أو ثورة المقراني. وتحققوا أنه وراثي يرجع عهده إلى الأزمنة القديمة ، وقد سجل في التاريخ في أوائل القرن العاشر الهجري عند ما احتل الإسبان مدينة بجاية. ثم ظهر الأتراك في الميدان فحاصرها صالح رايس، ما يقرب من الشهر فاستولى على حصن عبد القادر، ثم هاجم حصن موسى- قصبة البلاد في العهد الإسلامي - فتحصن بها حاكم البلدة "لويس دوبرالطا LOUIS DE PERALTA " فكانت المقاومة عنيفة ودامت ثلاثة أسابيع فعندئذ تقدم سبعة جنود " فدائيين " و اتخذوا سلاليم من حبال ولما سقطوا تحت وابل رصاص الإسبان لم تذهب تضحياتهم سدى ، فقد خلفهم كثير من رفقاءهم ولم تمض تلك الليلة حتى تغلب أصحاب السلاليم على المقاومين الإسبان وفتحوا الحصن فخلد صالح رايس إثر احتلاله هؤلاء الشهداء وبنى لهم ضريحا في سفح برج موسى واشتهر هذا الضريح بهم مدة ومازال إلى الآن حمام بسيط بالقرية يحمل هذا الاسم (حمام السبعة رجال) .

هذه في الجملة نبذة تاريخية عن الرباط والفدا، وهي كما رأيتم وإن كانت كل بلدة إسلامية لا تخلو منها ، إلا أن نظام الرباط بوهران والفداء ببلاد القبائل لم نجد لهما نظير في بقية البلاد الإسلامية، أو لم يعن بها المؤرخون كما اعتنوا برباط وهران وفداء القبائل .

